كارنارڤون ، وهو بعوض ظالم ، فقد حدثنا شوقي في البائية أن اللورد كارنارڤون أهدى إلى توت عنخ آمون هدية أعظم من الهرمين ، لأنه عرَّف به أمماً لم يعرفها عصر الفراعين . ألم تُكتب فيه عشرات البحوث في بلاد الأمريكان ؟

خلاصة البحث

قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثاني من الشوقيات في الحدود التي يسمح بها الوقت ، وإني لواثق بأن هذه الإشارات تكفي لهداية المتسابقين إلى اجتياز الامتحان بأمان

ولكن الواجب يحتم عليَّ أن أشير على الطلبة بأن يسألوا أساتذتهم عما فاتني النص عليه ، فقد يكون في أساتذتهم من هو أعرف بسرائر الشوقيات

وقد سكت عن سينية شوقي في معارضة سينية البحتري ، لأني تحدثت عنها بإطناب في كتاب « الموازنة بين الشعراء » وأنا أكره الحديث المعاد

أما بعد فما خلاصة هذا البحث ؟

هو إشارات ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بإمعان . والنقد الأدبي توجيه لا تلخيص . والله وليُّ التوفيق

زكي مبارك

١٩٠٢٩

مرسلات مع الريح

نعش وباب

للأستاذ إسماعيل مظهر

نحو الشَّمال ... وسرنا في ليل مُعتم ، والمطر ينهمر كأنَّ السماء تحاول أن تدكَّ بمائهـا الغمر ذلك الأديم الذي تنزلق من فوقه حوافر الجياد

مال ميزان النهار ، واكتهل اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٣١ ، قبل أن ندلف بجيادنا في قفر سَبْسَبٍ في شمال الدقهلية وقصدنا بلدة يقال لها « غرور » . وكان ثلاثتنا في صمت مُحزن ، فلا ينبس أحدنا ببنت شفة . وكنَّا في حالة ترقب بعد أن انحدرت الشمس نحو المغيب ، وأرسلت من خلال فجوة في السُّحُبِ الدُّهم ، غلالة حمراء من غلائلها التي تتيه بها في أشهر الشتاء

وهبَّ ريح لافح تضرب وجوهنا بألسنة من الزمهرير ، وتعصف بشجيرات من الطرفاء هنالك ، فتسمع لها نواحاً أشبه بأنين البوم يتداعى ويتجاوب

وقد تراكب في السماء سحاب من فوقه سحاب ، وانحدرت نحونا سحابة كأنها المداد ، تخيل إليَّ أنها قضاء الله في الظالمين ، ينحدر إلينا متثاقلاً وفي تمهل العالم بأنه لا بد من أن يصيب حيث يرمي . ولم تلبث أن رمتنا بذلك السيل المنهمر

مدَّت الجياد أعناقها نحو الأرض لتتقي بذلك انهمار المطر ، وراحت تمشي حذرة متلكئة . فالأرض سبخة والطريق وعرٌ ، وقد استحال آلافاً من البرك الصغيرة ، في كل منها مزلق ، وفي كل منها مهواة ؛ حتى لقد تذكرت في تلك الآونة جنة ذلك الرجل الذي كفر بربِّه ، فأصبحت صعيداً زلقاً

وأين نحن من «غرور» ؟ إنا منها على عشرة فراسخ ، في ليل ممطر شديد السواد ، قارس البرد ، قَرّ الرِّياح . وقد ابتلت ثيابنا وأخذ الماء يسري فيها ، كما تسري الخمر في أعصاب المنتشين ، حتى إذا بلغ جلودنا مضينا ننتفض ملتزمين ذلك الصمت الرهيب

ذلك القفر السَّبْسَب ملك لحكومتنا . وقد تبلغ مساحته آلافاً وآلافاً من الأفدنة ، لا يؤنسه غير نبات البَرْدي ينبت حيث تجتمع المياه ، ونبات الطَّرْفاء يحتل نَبَكاته المرتفعة ، مُتشبِّثاً بها وكأن كل نَبتة منه غريق في لُجٍّ مائج

وكنتُ أعرفُ أنَّ في جوفِ ذلك القفر مقاماً لوَلِيٍّ من أولياء الله ، شاده هنالك جماعة من مريديه ، وأقاموا إلى جانبه مسجداً ، فأخذت تتناثر من حوله القبور : قبور أولئك الذين يوصون بأن يدفنوا بقربة من وليِّ الله زلفى إلى الآخرة . وكنت أعلم أن لذلك المسجد حارساً يضيء فيه ، إذا جن الليل ، مصباحاً يهتدي به في ذلك القفر من تدهمهم مثل تلك الليلة الليلاء

رميت ببصري في جوانب ذلك القفر ، وقد ضللنا طريقنا ، وأخذت الجياد تضرب بنا في نواحيه ضرب المتخبط المذهول ، أتطلع لعلِّي أقع على شعاع ذلك الوليِّ الكريم . وأنَّى للبصر أن يهتدي في تلك الظلمات الهابطة علينا كِسَفاً ؟

ولكن الصمت الذي لزمناه قد انتهى أجله ؛ فقد تحرك لسان كبيرنا بكلمات ومتمته يقول إنه يرى ومض مصباح إلى الشمال منا . إذن فإلى الشمال

وانتحينا بجيادنا نحو الشمال ، وحثثناها على المسير . ولكن

أين الوميض ؟ لقد أخفاه الليل أو عصفت به عاصفة من الريح . وخيل إلىّ أن ذلك الوميض الذى لاح لكبيرنا ليس إلا سراب الليل ، أو أنه الوهمُ ضخّمه الأملُ فى النجاة من الليل والماء والرّياح . وثبتُّ نظرى نحو الشمال وحدقت تحديقاً تراءت معه لناظرى أشباح غريبة ، وطيوف تبدو وتخبو كأنها فى صراع ، وشعرت أنى أميل وأترنح من فوق جوادى ، وأن يداً خفية تأخذ بأطراف معطفى وتجذبنى إلى الوراء ، فأعتدل فى سرجى وأتثبت من ركابى لأستوثق من محلى ، وأنى على ظهر الجواد ، ومازلت مالكا حواسى . غير أن كل هذه الخيالات قد تبددت فجأة لما أن وقع بصرى على لمع ذلك القبس الخافت المريض الذى تراءى لصاحبى من قبل ، ثم اختفى فى جوف ذلك البحر اللجى من الليل ومن الماء ومن الرياح . وكنا كلما ضربت بنا الجياد فى جوف ذلك القفر الأملس المجرود ، توالت ومضات ذلك القبس الذى علقنا عليه الأمل ، وربطنا حياتنا بتراوحه بين الظهور والخفاء . حتى إذا كنا بمقربة منه عرفنا أنه مصباح ولىّ الله يتلاعب به الريح العاصف فيتنوح رواحاً وجيئة ، وقد علا جوانبه سواد كاد يخفى عن الأبصار ومضاته الضئيلة .

بلغنا عتبة المسجد القائم هنالك فى فجوة من فجوات ذلك الفضاء الترابى وحيداً كأنه الأمل الباسم المريض فى وحشة الفراق . وكنت أول الواثبين إلى الباب أعالج اقتحامه إلى الصحن فإذا بالباب مغلق ، ومن دونه دريئة هى نعش من خشب يحمل الموتى إلى أول السفر وآخر المعاد .

جمدت هنالك ذاهلاً عن جوادى وعن صاحبى أتأمل النعش ومن ورائه الباب . فكل من يحمل فى ذلك النعش ، لا بد له من أنه يجتاز ذلك الباب . فإذا جاوزه ، فإلى سفر الأبد المديد .

الباب والنعش . ثم صلاة تقام تكفيراً واستغفاراً ، فإذا دلف به الدالفون نحو الحفرة العميقة ، فقد دلفوا به ليسلموه إلى الآخرة ، ثم فلسفة فى شعر :

نُطوّف ما نُطوّف ثم نأوى ذوو الأموال منّا والعديم
إلى حفر أسافلُهنّ جرف وأعلاهن صفّاح مُقيم

ثم تأملات رهين المحبسين :

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا
فما فيكم من خيّر يُدّعى به يُفرّج عنى بالمضيق المسالكا

ومن ذا الذى أستنجد به هنالك ليفرج عنى فى ذلك المسلك الرهيب : النعش ومن ورائه الباب . ليس ثمة من شىء غير عزيمتى . وأنا حى بينى وبين النعش والباب شقة ، بُعدها بُعدَ الشرق من الغرب :

والشرق نحو الغرب أقرب شقة من بُعد تلك الخمسة الأشبار

فأزحت النعش جانباً ، واقتحمت الباب ، فإذا الظلام مخيم على صحن المسجد والرياح حيرى فى جوانبه ، تهدّ منحدرة من منافذه العليا ، فتدور مُتلوّية ، ثم تندفع نحو الباب ، كأنها أسير أفلت من قيود الحديد :

تمشى الرياح به حيْرى مدلّهة حسرى تلوذ بأكناف الجلاميد

خلعت معطفى وألقيت به جانباً ، وجلست مسنداً ظهرى إلى الجدار البارد القرور ، وما لبث كبيرنا أن انتحى موضعاً آخر ، ثم التفت إلىّ وقال :

« إذا بزغت الشمس يمّمنا نحو (غرور) ، فقابلنا عمدتها ووجهاءها ، واستوثقنا من أنهم سوف يعضدوننا ، ثم انحدرنا نحو « زفر » فنأخذ على أهلها المواثيق ونقيّدهم بالعهود ثم ... »

غير أنه لزم الصمت إذ بادرته بسؤال لم يكن يتوقعه من فتى ينتمى إليه بروابط الرحم : فصرخ مهتاجاً :

« ألم تر كيف صار فلان عضواً بمجلس النواب ، وفلان عضواً بمجلس الشيوخ ، وفلان وكيل وزارة ، وليس منهم من يدانينا جاهاً وثروة . إنك ما تزال جاهلاً بأمور دنياك فاسكت وأطع »

قلت نعم إنى أصغر منك سناً ، وربما كنت أقل تجربة ، ولكنى سأصارحك برأيى فيمن ينبغى أن تكون لهم هذه المراكز العليا : هى ياسيدى لمن يُقالُ له هِيَ لك ، لا لمن يَقولُ هى لى . هذه هى الحقيقة برغم القوانين ، وبرغم الشرائع ...

ثم لزمت الصمت ولزمه . حتى إذا تنفس الصبح وبان الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، عمدت إلى معطفى المبلل فوضعته فوق كتفى ، وهممتُ بالخروج من المسجد ، فنظر إلىّ صاحبى نظرة تساؤل فلم آبه به ، ولم أحفل بما نمّت عنه نظراته ، بل ألقيت على الباب نظرة وعلى النعش أخرى ، وكأنما يحدّثهما قلبى هاجساً : عندكما يقف كل مغرور بدنياه

وامتطيت جوادى . وأدرت وجهه نحو الجنوب ، ومضيت أضرب فى ذلك القفر ، ولكن إلى عشىء إلى زوجى وأولادى ؟ إلى موضع حبى وحنينى . إلى من هم لعينىَ النور ، ولقلبى الرجاء ، ولحياتى الأمل ، ولنفسى الطمأنينة . إلى وكرى الصغير الذى أصبح لى فى جنبات هذه الدنيا الصماء القَرُور ، بمثابة البيضة والعش ، والسكن والوطن والكون

اسماعيل مظهر